ISSN : 2523 – 1871(online)
الصفحة 219

الهوية الثقافية والأدبية في ليبيا من خلال تقييدات بعض الرحالة المشارقة والمغاربة والأندلسيين

د. علي عياد محمد
كلية الآداب والعلوم. المرج
د. عبدالله علي نوح
كلية الآداب والعلوم. المرج

المستخلص:

يدرس هذا البحث موضوع الهوية الثقافة الليبية، التي تمثّل حلقةَ وصلٍ بين ثقافات المشرق العربي والمغرب العربي؛ فقد كانت ليبيا ممرًّا للثقافات والأحداث والرحلات، لكنها احتفظت بسماتها وطابعها اللغوي والثقافي. إن ظاهرة طرح هوية الفرد أو الجماعة أو الأمة على المحك، تعبر عن وجود أزمة بنيوية، تعاني الذات من جراحاتها، وتشكك في وجودها وسلامة معتقدها، ونجاعة خياراتها الرئيسة في التعامل مع العالم. ويعد الكشف عن ملامح الهوية الثقافية العربية والإسلامية ومنابعها وترسيخ محتوياتها أمرا لابد منه؛ للحفاظ على هذه الهوية التي تتمتع بسمات تميزها عن غيرها. وتهدف هذه الدراسة إلى العمل على تأصيل الهوية الثقافية بما يتفق وثقافة المجتمع الليبي، بحيث يؤدي ذلك إلى تجاوز التحديات التي تضعف هويتنا، كما يهدف إلى تنمية الوعي بالهوية الثقافية وأهميتها لدى الشباب الليبي. وقد اعتمد البحث على المنهج الوصفي في رصد أبرز ملامح الهوية الثقافية، وتحليل العوامل التي ربما تكون مسؤولة عن أزمة الهوية الثقافية في المجتمع العربي.

الكلمات المفتاحية: الهوية الثقافة الليبية، الرّحّالة، المشارقة والمغاربة والأندلسيّون.

توطئة:

تمثل الهوية الثقافة الليبية بموقعها حلقة وصلٍ بين ثقافات المشرق العربي والمغرب العربي؛ مما جعلها ممرًا للثقافات والأحداث والرحلات، لكنها احتفظت بسماتها وطابعها اللغوي والثقافي، فلغتها تميزت بسليقة سليمة، لاسيّما من ناحية مخارج الحروف، وسلامـة النطق، ووضوح السليقة، فاللهجة الأقرب إلى الفصحى هي لهجة سكان ليبيا؛ فنطقهم للحروف والكلمات مماثل تمامًا للغة العرب الصحيحة السليمة، ولم تؤثر نوائب الزمن والاحتلال والاختلاط في صحة لسان سكان ليبيا.

طرق الديار الليبية –بمدن ساحلها وقراها– العديد من الرحالة والبلدانيين، ومر بها ثلة من العلماء والأدباء واللغويين –مشارقة ومغاربة وأندلسيين– وقيدوا بعض انطباعاتهم ورؤاهم حول التكوين اللغوي والثقافي لبعض مدنها وقراها.

فمن أعلام من طرقوا ديارها أو كتبوا عن مدنها وقراها: اليعقوبي صاحب كتاب البلدان، وابن خرداذبة فى المسالك والممالك، وابن حوقل، والمقدسي، والبكري في (البيان المغرب) والإدريسي، وياقوت الحمـوي، والعبدري، والتجاني، وابن بطوطة، والورثيلاني، والعياشي، والحشائشي، وغيرهم.

وعلى الرغم من افتراق أقوالهم بين منصف ومتحامل، فلا مندوحة عن فحص تقييداتهم عن الحالة الثقافية واللغوية والأدبية والعلمية، وعقد مقارنات ومقاربات بين تسجيلاتهم، وعلى وجه التخصيص في مجال الأدب واللغة والثقافة.

وهذا البحث محاولة استقصائية لتقييد ما دوّنه أولئك عن أوضاع الهوية الثقافية، وما سجلوه من انطباعات عن التكوين الثقافي إما عيانًا أو نقولاً، في البعد العلمي والتكوين الثقافي، وصولاً إلى تكوين صورة عن العمق التاريخي للهوية اللغوية والثقافية في ليبيا.

إنّ لكلّ شيء في الكون هوية دالة على وجوده، ومميزة له عن باقي الموجـودات، وهناك هويات متجددة، وأخرى ثابتة، وتعدُّ الهوية العرقية المشكل الأول للهوية الإنسانية، ويحملـها الإنسان قسرًا دون اختيار مسبق منه، وهي غير قابلة للتغيير على المستوى الجيني، مع قابلية تغييرها والتخلي عنها في الأوراق الثبوتية التي يختارها الفرد للتعبير عن نفسه، كما يمكن التخلي عنها من خلال المظهر الثقافي الذي يعكس الانتماء لهذه الهوية.

وهي الأساس الذي تتشكل على أساسه العديد من الهويات المتداخلة التي يكتسبها الإنسان منذ الميلاد وقبل أن يتفاعل مع وسطه الاجتماعي، وقبل أن يتعرف على ماهيته وماهية الأشياء من حوله، وقبل اكتسابه للثقافة، واللغة، والدين، أضف إلى ذلك هويات أخرى تُحدَّد لاحقًا كالانتماء لجماعة دينية أو مهنية أو حزبية أو ثقافية.

مشكلة الدراسة:

إن ظاهرة طرح هوية الفرد أو الجماعة أو الأمة على المحك، تعبر عن وجود أزمة بنيوية، تعاني (الذات/ النحن) من جراحاتها، وتشكك في وجودها وسلامة معتقدها، ونجاعة خياراتها الرئيسة في التعامل مع العالم.

فالعالم العربي –وبالأخص ليبيا– فقد الإحساس بهويته، وتملكته النزاعات السياسية، والحروب التي يخوضها ضد المحتلين والإرهابيين، والمرتزقة الظلاميين، ونتيجة ذلك فقد ضاع منه جامعه المشترك، ومواقفه المشتركة، وهدفه المشترك.

لذا فإن اهتزاز الثقة بالهوية يتأثر بالظروف المحيطة والأحداث الجارية، وبذلك تتحدد مشكلة الدراسة في السؤال الآتي:

– ما مستويات تشكُّل الهوية الثقافية الليبية وفق ما قيده الرحّالة المختلفين؟

بشكل عام، أسهم الرصيد الثقافي الكامن في ذهن الرحالة في وصف الآخر، ورصد أحواله وقيمه، وفق خصوصيات الذات الحضارية والثقافية وإحساسها بالقوة والتغلب، فلا شكّ في أن مركزية ثقافية ستوضح عن نفسها وهي تتحدث عن الآخر، فتعيد صياغته وفقا لمقدمات مسبقة.

فالإحساس بالتفوّق الديني والحضاري من جهة، والانتماء إلى دولة قوية من جهة أخرى، عناصر جعلت الرحّالين ينتجون خطابا معرفيا يعبرون فيه عن قوة سكان البلاد، وتميزهم عن غيرهم، ولكن هذا الإيمان بالارتقاء والتفوق الحضاري لم يمنع من الإشادة بمعالم الآخر الإيجابية، سياسية كانت أو اجتماعية أو فنية أو أدبية، فالرحلة بوصفها ركنا من أركان الكتابة الجغرافية أفادت المعرفة، ومدتها بمادة إثنوغرافية مهمّة حول موقع الإنسان وهويته في عديد المجتمعات.

أهمية الدراسة:

1– يعد الكشف عن ملامح الهوية الثقافية العربية والإسلامية ومنابعها وترسيخ محتوياتها أمرا لابد منه؛ للحفاظ على هذه الهوية التي تتمتع بسمات تميزها عن غيرها.

2– ربما تسهم هذه الدراسة في لفت نظر المعنيين بشؤون المجتمع الليبي، وتقديم مقترحات لهم؛ لبناء استراتيجية محلية تساعد في تعزيز الهوية الثقافية الليبية والحفاظ عليها، وذلك من خلال وضع تصور لدور الكوادر السياسية والعلمية في مواجهة تداعيات التحولات العالمية على الهوية الثقافية الليبية.

أهداف الدراسة:

1-العمل على تأصيل الهوية الثقافية بما يتفق وثقافة المجتمع الليبي، بحيث يؤدى ذلك إلى تجاوز التحديات التي تضعف هويتنا.

2- تنمية الوعي بالهوية الثقافية وأهميتها لدي الشباب الليبي.

منهج الدراسة:

اعتمد البحث على المنهج الوصفي في رصد أبرز ملامح الهوية الثقافية، وتحليل العوامل التي ربما تكون مسؤولة عن أزمة الهوية الثقافية في المجتمع العربي، وتبعا لذلك يرى الباحثان تقسيم البحث على مبحثين أساسيين، هما:

المبحث الأول: الهوية الثقافية (حدّها/ أنواعها/ العوامل المؤثرة في بنائها/ مكوناتها/ علاقتها باللغة والأدب والدين والتاريخ):

- **تعريف الهوية (identitiy):**

وردت لفظـــة الهُوِيَّة بضم الهاء وكسر الـــواو وشد الياء في المعجم الوسيط للتعبير عن ماهية الشيء، فالهوية " حقيقة الشيء أو الشخص التي تميّزه عن غيره " (أنيس، 2004، مادة الهو). واصطلاحًا عرفت الهوية بأنها "حقيقة الشيء أو الشخص المطلقة المشتملة على صفاته الجوهرية " (مجموعة من الباحثين، 2000، 875).

ولا يمكن معرفة هوية أي إنسان من دون الصفات التي تخصه دون سواه، كما عرفت الهوية أيضًا بأنها " الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق ". (الجرجاني، 1998، 91 – 193 – 249)

أما في اللغة الإنجليزية فتعني الهوية " تماثل المقومات أو الصفات الأساسية في حالات مختلفة وظروف متباينة، وبذلك تشير إلي الشكل التجميعي أو الكل المركب لمجموعة من الصفات التي تكون الحقيقة الموضوعية لشيء ما، والتي بواسطتها يمكن معرفة هذا الشيء وغيره على وجه التحديد ". (طعيمة، 1998، 35)

وأما آراء المفكرين حول مفهوم الهوية فيلاحظ أن الأمر لا يختلف كثيرًا عما ذكرنا، وإن كان يتميز بأنه أكثر تحديدًا؛ لأنه يرتبط بالبُعد الثقافي أو الاجتماعي للمصطلح، فقد عرَّفها سعيد إسماعيل علي بأنها "جملة المعالم المميزة للشيء التي تجعله هو هو، بحيث لا تخطئ في تمييزه عن غيره من الأشياء، ولكل إنسان شخصيته المميزة له، فله نسقه القيمي ومعتقداته وعاداته السلوكية، وميوله واتجاهاته وثقافته، وهكذا الشأن بالنسبة للأمم والشعوب " (إسماعيل، 1987، 95).

وعرَّفها إسماعيل الفقي بـ" أنها مجموعة من السمات الثقافية التي تتصف بها جماعة من الناس في فترة زمنية معينة، التي تولد الإحساس لدى الأفراد بالانتماء لشعب معين، والارتباط بوطن معين، والتعبير عن مشاعر الاعتزاز والفخر بالشعب الذي ينتمي إليه هؤلاء الأفراد" (الفقي، 1999، 205).

ومن المفاهيم التي قدمت للهوية الثقافية ما تبنته منظمة اليونسكو بقولهم: إن " الهوية الثقافية تعني – أولاً وقبل كل شيء– أننا أفراد ننتمي إلى جماعة لغوية محلية أو إقليمية أو وطنية، بما لها من قيم أخلاقية وجمالية تميزها، ويتضمن ذلك أيضًا الأسلوب الذي نستوعب به تاريخ الجماعة وتقاليدها وعاداتها وأسلوب حياتها، وإحساسنا بالخضوع له والمشاركة فيه، أو تشكيل قدر مشترك منه، وتعني الطريقة التي تظهر فيها أنفسنا في ذات كلية، وتعدُّ بالنسبة لكل فرد منا نوعًا من المعادلة الأساسية التي تقرر– بطريقة إيجابية أو سلبية – الطريقة التي ننتسب بها إلى جماعتنا والعالم بصفة عامة ". (المحروقي، 2004، 164).

وبناءً على ذلك تُفسَّرُ الهوية على أنها الكيفية التي يعرف الناس بها أنفسهم، ويوصفون بها تأسيسًا على العرق، الإثنية، المواطنة، الانتماء إلى أرض واحدة وتاريخ وعقيدة مشتركة.

فالهوية الثقافية هي نظام من القيم والتصورات التي يتميز بها مجتمع ما تبعًا لخصوصياته التاريخية والحضارية، وكل شعب من الشعوب البشرية ينتمي إلى ثقافة متميزة عن غيرها، وهي كيان يتطور باستمرار ويتأثر بالهويات الثقافية الأخرى، ولهذه الأخيرة مستويات ثلاث: هوية فردية، هوية جماعية، هوية وطنية.

والهوية في معناها المجرَّد هي جملة علامات وخصائص من أجناس مختلفة، تستقلُّ بها الذات عن الآخر، فبغياب هذه العلامات والخصائص تغيب الذات وتذوب في الآخر، وبحضورها تحضر (الودغيري، 2000، 67).

.....

- **أنواع الهوية:**

تُقسم الهويّة على مجموعة من الأنواع، ويسهمُ كل نوع منها في الإشارةِ إلى مصطلح، أو فكرة معينة حول شيءٍ ما، ومن أبرز أنواعها، ما يأتي:

أ- الهويّة الوطنيّة:

هي التي تُستخدَمُ للإشارةِ إلى وطن الفرد، ويتمُّ التّعريف عنها من خلال البطاقة الشخصيّة التي تحوي مجموعة من المعلومات والبيانات التي يتميّز فيها الفرد الذي ينتمي إلى دولةٍ ما.

ب- الهويّة الثقافيّة:

هي التي ترتبطُ بمفهومِ الثّقافة التي يتميّز فيها مجتمع ما، وتعتمدُ بشكل مباشر على اللّغة؛ إذ تتميّزُ الهويّة الثقافيّة بنقلها لطبيعة اللّغة بصفتها من العوامل الرئيسة في بناءِ ثقافة الأفراد في المجتمع.

ج – الهويّة العُمْريّة:

هي التي تُسهمُ في تصنيفِ الأفراد وفقًا لمرحلتهم العُمْريّة، وتُقسم إلى: الطّفولة، والشباب، والرجولة، والكهولة، وتُستخدَمُ عادة في الإشارةِ إلى الأشخاص في مَواقفَ معينة، مثل تلقي العلاجات الطبيّة (ابن جماعة، 2009، 3 وما بعدها).

- **العوامل المُؤثّرة على بناء الهويّة:**

توجــد مجموعة من العوامــل التي تؤثّر على بناءِ الهوية عند الأفراد، من أهمها:

أ- المجتمع:

هو أول العوامل المؤثرة على بناء الهوية؛ إذ يُسهمُ المجتمع في بناء هوية الأفراد وتشكيلها، بناء على طبيعة البيئة المحيطة بهم، ويتأثّر الأفراد بسلوكيّات الأجيال السّابقة لهم، سواء في العائلة، أو الحيّ، أو المجتمع عمومًا، وتُسهمُ في بناءِ الهويّة الفرديّة الخاصّة بهم، ومُساعدتهم على فهمها بطريقةٍ أوضح.

ب- الانتماء:

هو الارتباطُ بالمكان الذي يعتمد على دورِ الهويّة في تعزيز مفهومه؛ إذ ينتمي الفردُ للدّولة التي يعيشُ فيها، ويُعدُّ مواطنًا من مواطنيها، ولهُ حقوق وعليه واجبات تنظّمها أحكام الدّستور، لذا فإنّ الهويّة عبارةٌ عن وسيلةٍ للتّعزيزِ من هذا الانتماء عند الأفراد والجماعات.(هارلمبس وهولبورن، 2010، 105، 106).

إذاً، فثمة علاقة بين الانتماء والهوية، تتمثل في أن كلا منهما يؤثر في الآخر ويتأثر به، فالإنسان عندما يعرف أن هويته ترتبط بهوية المجتمع الذي يوجد فيه، فإن هذا يجعله يتمسك بمجتمعه ويرتبط به.

كما أن هناك ترابطا وثيقا بين الهوية والثقافة، فلا هوية من دون ثقافة تستند إليها وتؤسس لها، وهما عنصران متلازمان من عناصر الذات، ومكونان متكاملان من مكونات الشخصية الفردية والجماعية، أي أن لكل جماعة هوية تتميز بها، ولها ثقافة معلومة تُعرف بها.

وتبعا لذلك، يمكن أن نخلص من ذلك بالآتي:

- أنه يصعب أن نجد تعريفا جامعا مانعا للهوية الثقافية بمفهومها العام.
- أن الهوية الثقافية تتكون من مزيج من اللغة والدين والتاريخ وثقافة المجتمع، وهذا معناه أن الهوية يكون لها خصوصيتها المستمدة من ثقافة المجتمع ويصقلها تاريخه وحضارته.
- أن الهوية الثقافية تتكون في ضوء ثلاثة عناصر رئيسة هي: الوطن، والأمة، والدولة.

وفي ضوء ذلك يمكن حدُّ الهوية الثقافية الليبية بأنها مجموعة السمات والخصائص التي تنفرد بها الشخصية الليبية، وتجعلها متميزة عن غيرها من الهويات الثقافية العربية الأخرى، وتتمثل تلك الخصائص في اللغة والعادات والتقاليد والأعراف، وغيرها من المكونات الثقافية ذات السمة العربية والإسلامية. ولعل من أبرز مكونات الهوية الليبية: اللغة، والدين، والتاريخ، ومواجهة التحديات، والتعايش المشترك. (الشيباني، 2001، 170 وما بعدها).

إلا أن الصفة الفارقة التي تميز بها الليبيون عن غيرهم من المتكلمين باللغة نفسها –رغم وجود ليبيين غير عرب، منهم: الأمازيغ، والطوارق، والتبو– هي قرب لهجتهم من العربية الفصحى (مقارنة بما يتفقون عليه من اللغة، إذ أوجه الاتفاق أكثر من أوجه الاختلاف)، مثل: تسهيل الهمز في لغة الحجازيين، مع أن تميم تحققها، وكذلك إعمال ما النافية عمل ليس في لغة الحجاز، وغيرها.

إننا لا نستطيع أن نجعل اللهجات العربية في سلة واحدة، وننظر إلى قربها من اللغة العربية الفصحى من عدمه؛ لأن اللهجات مختلفة، فمنـــها ما هو صحيح فصيح، وهناك ما هو أفصح منها، وقد عقد " ابن جني " بابًا في كتابه " الخصائص " أسماه (باب اختلاف اللغات وكلها حجة) ذكر فيه أن الكسكسة، والكشكشة، والعجرفية، وتلتلة بهران، هي من لهجات بعض العرب. (ابن جني، 1956، 11).

فاللهجة الليبية بشكلٍ عام تتمتع بمخارج حروف واضحة صافية، وهناك الكثير من الخصائص التي عرفت بها لهجات العرب في الجاهلية موجودة في اللهجة الليبية لاسيّما من ناحية مخارج الحروف، وسلامة النطق، ووضوح السليقة. واللهجة الليبية الحاضرة –فيما يبدو– سلالة منقحة صافية من لهجات العرب الذين سكنوا أرض ليبيا في القرن الرابع الهجري وما بعده.

وقد صنَّف علماء اللغويات اللهجة الليبية ضمن اللهجات البدوية الصرفة، وجعلوها في فئة ما بعد الهلالية، وتعرف عندهم باللهجة (السليمية) نسبة إلى قبائل بني سليم التي استوطنت ليبيا (ابن خلدون، 2004، 1: 83 وما بعدها).

وعلى الرغم ممّا دخل اللهجة الليبية من بعض صور النطق الذي تتميز به بعض اللهجات، مثل نطق الحرف (ق) كالجيم المصرية أو الحرف اللاتيني (g) واستخدام حرف (ن) بدلاً من الألف في الفعل المضارع الدال على المتكلم، فبدلا من (أريد) تنطق (نريد)، وكذلك وجود البعض من المسميات والمصطلحات الدخيلة على اللسان العربي الليبي، من مثل (كاشيك) للملعقة، و(كوجينة) للمطبخ، و(طاسا) للكوب،... وغيرها، إلا أن اللهجة الأقرب للفصحى هي لهجة سكان ليبيا، فنطقهم للحروف والكلمات مماثل تمامًا للغة العرب الصحيحة السليمة، ولم تؤثر نوائب الزمن والاحتلال والاختلاط في صحة لسان سكان ليبيا.(العبدري، 1968، 206).

فاللهجة الليبية –من خلال علم مخارج الحروف– أصح اللهجات وأقربها للعربية الفصحى، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنها تتميز بوحدة لغوية يسهل معها التواصل المباشر في كل أرجاء البلاد، رغم أن الدخيل على اللهجة الليبية موجود في جل مناطقها على السوية.(التليسي، 1993، 5 وما بعدها).

ومن المؤكد أن إتقان اللغة العربية يساعد على الانسجام والتناغم بين أفراد المجتمع، بل والاعتزاز بهويتهم؛ لأن أبناء اللغة الواحدة يشكلون قوالب فكرية وثقافية مشتركة، لذا فاللغة والثقافة تسهمان مساهمة فاعلة في الحفاظ علي الهوية الثقافية العربية والإسلامية.(السيد، 2010، 246).

والعلاقة بين اللغة والهوية الثقافية علاقة قوية لا تنفصم، ولهذا كان من أهم مقاييس رقي الأمم مقدار عنايتها بلغتها تعليما ونشرا وتيسيرا لصعوباتها (القوزي، 1442هـ، 3 وما بعدها). وكذلك العلاقة بين الدين والهويّة من جهة أخرى علاقة وثيقة لا يمكن الفصل بينها بأي شكل من الأشكال.

إن الدين هو المكوّن الأساس لثقافة أي أمة من الأمم، وعندما نتحدّث عن الدين، فإننا لا نتحدّث عن الرموز والطقوس الدينية التي يؤديها بعض الناس فقط، ولكننا نتحدّث عن رؤية للذات وللعالم وللناس وللحياة، وهذا يجعلنا نقول: إنّ أي نظام فكري أو رؤية للحياة تمثل الإطار الفكري الذي يؤسس للثقافة العامة لأي أمة أو شعب.

ومن هنا فيجب على كلّ مسلم أن يزوّد نفسه بالثقافة العربية والإسلاميّة، وأن يكون ملمًّا بأهمّ مصادرها، ويعلم أنّ تدينه وثقافته هما أساس هويته وانتمائه، وهما الأداة الأساس لإقناع الآخر والتأثير فيه، وأن يتفطّن كلّ مسلم إلى أنّ هويته المرتبطة بدينه ولغته تواجه أشرس هجمة في عصر العولمة، فلغتنا العربية محفوظة بحفظ الله ﷻ لكتابه العزيز، القائل في كتابه الكريم: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (القرآن الكريم، سورة الحجر، الآية 9).

وقد أشار بعض العلماء صراحة إلى دور الدين الإسلامي في حمل اللغة والحفاظ عليها أمام الهجمات الأخرى، ومن هذه الآراء رأي لابن خلدون، ذهب فيه إلى أنّ هناك عاملين اجتماعيين أساسين في انتشار اللغة وسيطرتها في المجتمع، هما: السلطة والدين، وأشار إلى أن عامل الدين أقوى بكثير من عامل السلطة في المحافظة على اللغة العربية؛ لأن سيطرة بعض الأمم (الديلم، والسلجوقيّة، والبربر) أضعفت اللغة العربية، إلاّ أنّها استطاعت البقاء؛ لبقاء الدين الإسلامي في نفوس ناطقيها (ابن خلدون، 2004، 830).

كما لا يمكن لأية أمة أن تشعر بوجودها بين الأمم إلا عن طريق تاريخها؛ الذي يمثل أحد قسمات هويتها، فالتاريخ هو السجل الثابت لماضي الأمة وديوان مفاخرها وذكرياتها، وهو آمالها وأمانيها، بل هو الذي يميز الجماعات البشرية بعضها عن بعض، فكل الذين يشتركون في ماض واحد يعتزون ويفخرون بمآثره

يكونون أبناء أمة واحدة، فالتاريخ المشترك عنصر مهم من عناصر المحافظة على الهوية الثقافية، وعلى ذلك يكون طمس تاريخ الأمة أو تشويهه أو الالتفاف عليه هو أحد الوسائل الناجحة لإخفاء هويتها أو تهميشها.

لكن المشكلة ليست في التاريخ، إنما فيمن يحفظ هذا التاريخ، ويسجل إضاءاته وانطفاءاته، ويستفيد من مواقفه وعبره ودروسه.

وعلى مستوى أمتنا الليبية فتاريخها شاهد على أنها أمة ذات هوية قوية مشرفة ومؤثرة؛ ذلك لأن تاريخها حافل بالنضال والجهاد ضد المحتلين والغزاة بمختلف أجناسهم عبر حقب زمنية متفرقة، وحتى يومنا هذا (أبو صوة، 2012، 101).

وهذا معناه أننا الآن بحاجة إلى نهضة فكرية وثقافية؛ للمحافظة على هويتنا الثقافية وسط عالم يعج بعواصف العولمة القاتلة للهوية، ومن الأهمية أن يتوفر لليبيين وعي علمي بتاريخهم وتطوره وديناميات، مما يعينهم على تأصيل هويتهم ومعرفة الملابسات التاريخية لحدودها. (إبراهيم، 2018، 90).

أضف إلى ذلك أنه يجب على الأديب المسلم أن يتمثَّل الهويَّة العربية الإسلامية في أدبه، مهما تعدَّدت الأغراض التي يكتب فيها، ولا يعني هذا أنَّه مُطالب بتحويل أدبه إلى وعظ مباشر، فلكلّ مقام مقال، ولكلّ شخص مقوِّماته وقدراته، إلاَّ أنَّ المسلمين يتفقون جميعًا في أنَّ كلاً على ثغر من ثغور الإسلام.

ومن الأهمية بمكان أن يعي الأديب الليبي أنَّه لا شيء يعدل الأدب في تأثيره؛ لأنَّه بما يملك من سمات فنيّة جمالية لا يجوز تجاهلها، ممتع ذو قيمة فنية رفيعة، فلا يجوز تجاهل هذا النشاط الإنساني ذي الدور الخطير، أو تسخيره للعبث والمتعة الرخيصة، أو توجيهه لشرّ الإنسان، وإفساد قيمه، وإثارة العواطف الشريرة الدنيئة فيه.

المبحث الثاني: تقييدات الرحالة المشارقة والمغاربة والأندلسيين، ودورها في رسم الهوية الثقافية الليبية:

للرحلات دورٌ بارزٌ في ثقافة التواصل بين الشعوب بعضها ببعض، وإذا كانت اللغة تمثل أبرز قنوات التواصل مع الآخر، فإن الرحلات لها ذلك الدور الكبير –أيضًا– في التعرف على الآخر ومشاركته أفكاره وأطروحاته.

وإذا كانت العولمة تؤمن –ضمن أهدافها الرئيسة– بالتشرذم والتفرق والهيمنة من خلال محاولاتها المستميتة للتقارب بين الثقافات، وجعلها في بوتقة واحدة تضم الدول ذات الحضارات العريقة مع الدول التي لا حضارات لها؛ حتى تمحو هويتها الثقافية، فإن الرحلات تقف حائلاً أمام تلك المخططات، فالرحالة من خلال توقفه في محطات بين رحلة وأخرى من أجل الراحة والاستجمام يتيح لنفسه الفرصة للتعرف على أناس آخرين يتصل بهم اتصالا مباشرًا، ويستمع إليهم، ويتأثر بهم، ويؤثر عليهم فكرًا ومذهبًا وأعرافًا وعادات، وربما لإقامة علاقات تجارية وإنسانية، وربما أيضًا لعقد مصاهرات وبناء أسر ونحوها.

قد مرَّ كثير من الرحالة والمؤرخين –من المشارقة والمغاربة والأندلسيين– عبر الأراضي الليبية، وكان بعض هؤلاء الرحالة من حجاج بيت الله الحرام، ومن الطبيعي أن الرحلات هي تسجيل للأحوال الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، فهذه الرحلات ذكرت العلماء والأدباء، وذكرت القبائل، وذكرت أسماء الأماكن وأحوال الناس.

وقد درجوا على رسم الهوية الثقافية للمجتمع الليبي في فترات تاريخية مختلفة، على نحو تتعاظم معه استفادة المجتمع، بما دونوا وكتبوا في كتاباتهم من انطباعات ورؤى حول التكوين اللغوي والثقافي والمعماري لبعض المدن الليبية والقرى، وصولاً إلى تكوين صورة عن العمق التاريخي للهوية اللغوية والثقافية في ليبيا، وفيما يأتي رصد لبعض تقييدات مجموعة من أولئك الرحالة:

أبو محمّد عبد الله التجاني:

يقول الرحالة أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد بن محمد بن أبو القاسم التجاني الذي زار ليبيا سنة 708 هـ / 1308 م برفقة السلطان الحفصي ابن اللحياني عن العالم والفقيه ابن الأجدابي (توفي بعد 470 هـ/ 1078 م): " يكفي لهذا الرجل العظيم القدر فخرًا لهذا القطر " (التجاني، 1981، 263)، ويعني بهذا القطر طرابلس وليبيا بأكملها، فقد كان من العلماء الكبار.

فهذا التقييد يستفاد منه أن البلاد كانت تنطوي على مجموعة من العلماء الأجلاء الذين لا يألون جهدا في نشر العلم والمعرفة –رغم الظروف الصعبة التي كانوا يمرون بها بين الفينة والأخرى– وكان الناس يفدون إليهم للاستفادة والاستزادة.

قد كانت القوافل تمرّ بطرابلس، ويفد عليها المحاربون والمقاتلون؛ مما سبَّب حالة من الركود الثقافي والجمود العلمي، وقد أثبت التجاني ذلك، عندما صرَّح قائلاً: " وجميع الخواص (العلماء) من هذه البلدة مقهورون تحت أحكام العوام (الحكام) منهم؛ لبعد بلدهم عن الحاضرة وانقطاعهم عن الأوامر " (التجاني، 1981، 251 وما بعدها).

وعلى الرغم من ذلك فإن قلة من العلماء، منهم: أبو الحسن أحمد بن الخطيب، وأبو الحسن بن المنمر، وأبو محمد عبد الله الشعاب... وغيرهم، آثروا المبيتَ على الطوى؛ ليكونوا هداة لقوافل أهل العلم السائرة.

فكانوا يعقدون حلقات العلم، وكان قائمًا بها من العلماء الفقيه أبو يحيى بن أبي بكر بن برنيق المجريسي الهواري، من أهل جنزور، ولم يلبث فيها؛ فانتقل منها إلى طرابلس واستوطنها، وله مشاركة في علوم شرعية، منها أصول الدين على طريقة القدماء، قرأها على الفقيه أبي محمد بن أبي الدنيا، ومنها الفقه وغير ذلك، وقد لقيه التجاني بجنزور.

وأيضا العالم أبو العباس أحمد بن عبد السلام الأموي التاجوري، سكن طرابلس، وهو أحد العدول المصدرين بها، عارف بالتوثيق وعقد الشروط، حافظ للآداب والتواريخ، حسن الخط جدا، سافر – وقتئذ – إلى تونس، والتقى فيها التجاني صاحب الرحلة.

ودوّن التجاني أن مدينة طرابلس كانت تسمى بالمدينة البيضاء؛ لأنهم دأبوا على طلاء منازلهم باللون الأبيض، فقال: " ولما توجهنا إلى طرابلس وأشرفنا عليها كاد بياضها مع شعاع الشمس يعشي الأبصار، فعرفت صدق تسميتهم لها بالمدينة البيضاء ".

وقد قال عن كرم أهلها:

لأهل طرابلس عـــــادة من البر تنسي الغريب الحميما
حللت بها مكـرها ثم إذ أقمت بها أبدلـوا الهـــاء ميـما (التجاني، 1981، 273)

وكانت بها مساجد شهيرة تتلألأ، وجوامع عظيمة تنسك فيها الناسكون، وتعلم فيها العلماء العاملون، ومن أشهر مساجدها في تلك الفترة مسجد العشرة، وقد سُمّي بذلك؛ لأن عشرة من أشياخ البلد كانوا يجتمعون فيه للمشورة وأخذ الرأي في أمر البلد، وذلك قبل تملك الموحدين لها، فلما تملكوها ارتفع هذا الرسم، وزال عن

المسجد ذلك الاسم، ومنها مسجد عمرو بن العاص، وهو قرب باب هوارة، وقد نسب إليه هذا المسجد؛ لأنه هو الذي تولى بناءه إبان فتحه لمدينة طرابلس سنة 23/22هـ.

ويتربع على شاطئ المدينة البيضاء مسجد الشعاب وهو أعمرها وأشهرها، وكان في ذلك الوقت خالٍ لا عمارة به، وهو المنسوب لأبي محمد عبد الله الشعاب، المتوفى سنة 243هـ، وهو أحد الصالحين الفضلاء من أهل طرابلس، وقد كان نجارًا، وإليه نسب المسجد؛ لأنه هو الذي أتم بناءه ولزم السكن فيه.

ومنها المسجد المعروف بالجدود، ويعرف أيضا بمسجد الجدة؛ لأن إحدى جدات بني الأغلب ولاة إفريقيا هي التي بنته، ثم عرف فيما بعد بمسجد البارزي؛ لأن أبا الحسن البارزي سكن فيه، وهو خارج طرابلس من جهة جوفيها، مشرف على المقابر.

ومنها المسجد المعروف بمسجد المجاز، وكان معروفا بسكن أبي الحسن علي بن أحمد بن الخطيب؛ كان فقيها صالحا عالما زاهدا، وله في الفقه والفرائض والشروط تواليف مفيدة.

وفي قلبها وبين القصبة والمدرسة جامع طرابلس الأعظم الذي بناه بنو عبيد، وهو جامع متسع على أعمدة مرتفعة وسقفه حديث التجديد، وبه منار متسع مرتفع قائم من الأرض على أعمدة مستديرة، بُنِيَ في العام المكمل للمائة الثالثة على يد خليل بن إسحاق. وأخيرًا مسجد ابن فرج الهواري الطرابلسي، الملاصق لدار الفقيه ابن المنمر (التجاني، 1981، 245 وما بعدها).

ومما أسهم في الحفاظ على الهوية الثقافية الليبية وجود المدرسة المنتصرية، هذا الصرح العلمي الرائد في قلب المدينة، وذلك ما بين سنتي 655، 658هـ، وتعدّ من بين أحسن المدارس وضعًا، وأظرفها صنعًا، وقد نقل التجاني في بعض تقاييده: " حللت في بعض سفراتي بطرابلس، فبكرت يومًا إلى المدرسة التي أنشأتها بها الهمة العلية الإمامية المنتصرية، فدخلت إليها، وقعدت مسرّحًا طرفي في روضة حبق، حبست حاستي البصر والشم عليها، ثم قلت:

يا حبذا نسـمة هبت لناشقـــها غب الكرى سحرا من روضة الحبـق

حسبتهـا عندما هبت وقد نعشت ببلة مـــــن نـــداها روح منتشـق

قرنفل الهند قد وافى التجار بهـــا محافظين على نشر لـــه عبـــــق

ISSN : 2523 – 1871(online)

.....

فعندمـا فضه الراوي ذكـــــــرني بطيبه طيب عيـش مرَّ لي أنـــــق

بتونس أنس الرحمـن ساحتـــــها وسقيت أبـــــدا بالعارض الغــدق

ولا أموت إلى أن التقي قمـــــــرا للحسن مطلـعه مـــن ذلك الأفـــق

(التجاني، 1981، 251، 252)

الإسباني علي بك (العباسي):

زار هذا الرحالة طرابلس ما بين 1805–1806 م، واسمه الحقيقي (دومنجو باديا ليبليك) متخفيا بزي عربي، ادعى الإسلام، وتقمص شخصية المسلم؛ ليتمكن من أداء مهمته الجاسوسية، فزار عدة أقطار عربية من بينها ليبيا، ولما مرّ بمدينة طرابلس، ووثّق بعضا مما رآه وترك انطباعا طيبا في نفسه، في جوانب حياة أهلها الاجتماعية والاقتصادية والتجارية والسياسية.

يذكر " علي بك " أنه لما وصل إلى ميناء طرابلس بحرا قادما من الشرق، أطلقت سفينتهم قذائف في السماء طلبا للإذن بالدخول، فردت عليهم مدافع القلعة بالمثل ترحيبا بهم، وهذا الإجراء تقليد متعارف عليه في مثل هذه المناسبات، يكسب الدولة شخصية قوية بفرض مثل هذه التقاليد، أضف إلى ذلك أنه ذكر أن مركبا بحريا على متنه جنود ليبيون جاءوا إلى السفينة واقتادوها للرسو في الميناء (ليبليك، د. ت، 233).

ومما يدلل على أن السكان الليبيين –في ذلك الوقت– كانوا يحافظون على هويتهم، أن علي بك أكد في تقييداته أنهم حافظوا على نمط لباس يميزهم عن المحتل التركي، والطبقة اليهودية التي سكنت المدينة البيضاء وقتئذ، إذ يرتدون ملابس تصنع في سوق خاص بهم (الرباع)، وغطاء رأس أبيض اللون. كما أنه أبدى إعجابه بالمجتمع الطرابلسي، الذي يتميز بالبساطة والثقافة والحرية والمرونة وقبول الغير مادام أنه مسلم، ويدلل على ذلك بتولي أحد الإنجليز الذين أسلموا مركز ريس البحرية الطرابلسية (ليبليك، د. ت، 234).

إن إجادة أكثر من لغة، والتعامل بها، لهو مؤشر إيجابي على قوة شخصية ذلك المجتمع، وسعة ثقافته، وقدرته على المحافظة على اللغة الأصل، وهو ما تجلّى في تأكيده على أن غالبية السكان في مدينة طرابلس كانوا يجيدون اللغتين الإيطالية والإسبانية إضافة إلى اللغة العربية؛ مما سهّل عليهم التعامل مع الدبلوماسيين والرحالة والتجار وأصحاب الحرف من تلك الدول (ليبليك، د. ت، 234).

وأكد " علي بك " أن الليبيين كانوا محافظين على لغتهم؛ لعلمهم أن اللغة حافظة وناقلة لهذه الثقافة، ومن ثم فهي تحفظ للأمة الليبية وحدتها وترابطها، وتمكن أفرادها من التواصل والتعبير عن تركيبهم الثقافي والقيمي، وفيما يخص اللغة العربية فهي أصل أصيل، ومركب لازم من لوازم هوية هذه الأمة، فهي لغة القرآن الكريم، وضياعها ضياع لهذا الدين.

وفيما يخص الأمور الفقهية والشرعية، فقد ذكر " علي بك " أن هناك مذهبين فقهيين في المدينة: المذهب الحنفي الذي جاء به الأتراك ويتعصبون له، والمذهب المالكي الذي يتبعه أهل طرابلس، وكان للمدينة مفتٍ معه قاضيان؛ أحدهما لأتباع المذهب الحنفي، والآخر لأتباع المذهب المالكي، والجميع يعيّنون من قبل باشا طرابلس (ليبليك، د. ت، 237). فتمسك الليبيين بالمذهب المالكي عامل مهم من عوامل الحفاظ على الهوية الثقافية الإسلامية.

الرحالة محمد بن محمد بن مسعود العبدري:

في أثناء ذهابه إلى الأراضي المقدسة، مرّ هذا الرحالة بمدينة طرابلس، وقد دوَّن في رحلته مشاهداته وانطباعاته عنها، فاستحسن بعض الأمور منها: مسجدها ومدرستها وقوس الرخام بباب البحر، ولكنه انتقد الحركة العلمية، ونعت سكانها بالجهل، مستخدما ألفاظا قاسية وعبارات قوية تنبئ – فيما يبدو– عن معاملة سيئة وجدها من سكانها، فكان مخالفا لرأي من زارها قبله من الرحالة، ولمن جاء بعده لزيارتها.

قال العبدري في رحلته: " ثم وصلنا إلى مدينة طرابلس، وهي للجهل مأتم، ما للعلم بها عرس، أقفرت ظاهرا وباطنا، وذمها الخبير بها سائرا وقاطنا، تلمع لقاصدها لمعان البرق الخلب، وتريه ظاهرا مشرقا والباطن قد قطب، اكتنفها البحر والقفر، واستولى عليها من عربان البر ونصارى البحر النفاق والكفر، وتفرقت عنها الفضائل تفرق الحجيج يوم النفر " (العبدري، 1968، 78).

إن المتمعن في هذا الوصف لمدينة طرابلس، يتضح له أن هذا الرحالة لم يجد في طرابلس ما يسرّ، وأفاض في ذم أهلها ونعتهم بالجهل وضيق الأفق وغياب العقول، على الرغم من أنه أثنى على مدرستها وجامعها، ووصف قوس ماركوس أوريليوس وصفا دقيقا يدل على إعجابه به.

هذا التذبذب في الوصف لم يرق لبعض الدارسين، إذ علّق قائلا: " إنها مثل النشاز في هذه المعزوفة في المدح والإطراء، التي صاغها الرحالة والمؤرخون العرب في وصف مدينة طرابلس، سواء في ذلك من سبقوه

أو من تأخروا عنه، ممن خصوا هذه المدينة وأهلها بأوصاف طيبة حسنة، وهو يكاد يقتصر في وصفه على التنديد بضعف الحياة الفكرية، ويبدو أن العبدري كان رجلا مشاكسا، شرس الطبع، سريع الإثارة والاستفزاز والغضب، كما أنه كان سيئ الحظ، فلم يقع على الذين يقدرون لشخصيته قيمتها، ويحلونها منزلتها من التقدير والاحترام وكان من الممكن أن تتغير أحكامه، لو وجد من يحسن استقباله، ويخصه بالترحيب الذي يستحقه" (التليسي، 1974، 25).

والذي يبدو للباحثين أنه لا يمكن التسليم بكل ما ذكره العبدري بكل سهولة؛ لأنه يخالف كلام غيره من الرحالة الذين مروا على المدينة، ويبدو أن الأحكام التي أطلقها العبدري –رغم قسوتها– تتفق والواقع التاريخي للحياة العلمية في تلك الفترة، فلم تكن طرابلس خلالها من المراكز الثقافية الكبرى التي تضارع المراكز الثقافية المهمة في الشمال الأفريقي مثل تونس وغيرها (التليسي، 1974، 25)، غير أنها لم تكن خالية من الحركة العلمية، بل تواكبها وإن كانت بدرجة أقل من تونس وفاس، بدليل وجود مدرسة يُدرَّس فيها تفسير القرآن الكريم والحديث الشريف والفقه الإسلامي، والمناقشة التي دارت بين العبدري وأحد علمائها (أبي محمد عبد الله بن عبد السيد) خير دليل على ذلك (العبدري، 1968، 81).

كما دوّن تقييداته حول مدينة لبدة لما مرّ بها عام (677 هـ – 1257 م) قاصدا الحج إلى بيت الله الحرام، فقال: " وهناك مدينة لبدة فيها آثار قديمة، وبنيان عجيبة، وفيها من أساطين الرخام والواجهة والقصر يعجز عنها الوصف، وفيها صورة امرأة من الرخام بإزاء الطريق، ولاشك أن لبدة كانت دار مملكة، وهي الآن متهدمة... وفي جنوبها مدينة مسلاتة، قوم يبرّون أهل الدين، يكرمون الحجاج وهم على خير وصلاح " (العبدري، 1968، 114، 115).

فهو يصف أهل المدينتين (لبدة ومسلاتة) بالبر وحسن الخلق وإكرام الضيف وإطعام القِرى، وبالأخص لحجاج بيت الله الذين يمرون بالمدينتين، ويصفهم بالدين والتقوى، وهذا يعكس بجلاء ملامح الهوية الدينية للسكان المحليين في تلك الحقبة.

الرحالة أبو سالم عبد الله بن محمد أبي بكر العياشي:

لما مرّ العياشي بطرابلس وصفها بقوله: " وهي مدينة مساحتها صغيرة، وخيراتها كثيرة، ونكايتها للعدو شهيرة، ومآثرها جليلة ومعائبها قليلة، أنيقة البناء، فسيحة الفناء، عالية الأسوار، متناسبة الأدوار، واسعة طرقها،

سهل طروقها، إلى ما جمع لأهلها من زكاة الأوصاف وجميل الإنصاف، وسماحة على المعتاد زائدة، وعلى المعتافين بأنواع المبرات عائدة، لا تكاد تسمع من أحد من أهلها لغوًا إلا سلامًا، ولو لمن استحق ملامًا، لاسيّما مع الحجاج الواردين، ومن انتسب إلى الخير من الفقراء العابدين، فإنهم يبالغون في إكرامهم، ولا يألون جهدا في إفضالهم عليهم وإنعامهم " (العياشي، 2011، 1: 61).

نلمح في هذه الأوصاف ترسيما للهوية الثقافية الليبية التي امتازت بحسن السمت، والتعامل مع الناس بما يقتضيه الشرع الحكيم، وما جُبل عليه الليبيون من حسن الطباع، الممزوج بالعلم والفقه، فحصل للعياشي فضل كبير، واستفادة عظيمة من هذه الزيارة، إذ التقى ببعض علماء طرابلس وسمع منهم، واقتنى كتبهم، ومن أشهرهم (أحمد بن عبد الله المكنى)، الذي جلس إليه، واستعار منه عدة كتب، يقول العياشي في تقييداته: " لقيته بداره، واستعرت منه (المطول لسعد الدين التفتازاني)، فأعاره لي، وكانت له خزانة ليس مثلها لأحد من أهل بلده، ثم استعرت منه بعد ذلك (العضد على مختصر ابن الحاجب)، وكان ذلك قرب رحلتنا، فأعاره لي، وكتبت له مع الرسول بيتين، وهما:

فمنُّوا به قبل الرحيل كما تفضلتمُ مـــن قبله بالمطول

فإنكم أهـل لكل فضيلة كما أنكم أهـــل لكل تفضُّل

(العياشي، 2011، 2: 491)

وعند مروره بسرت سجّل العياشي تقييداته، فقال: " وبلاد سرت هذه أخصب البلاد، ذات مزارع كثيرة بالبعل، وعربها أهل رفاهية، إلا أن الجور أجلاهم من بلادهم، وشتت شملهم، إلا أن أمرهم كاد ينتظم في هذه الأواخر على يد أميرهم سيد روحه " (العياشي، 2011، 2: 352).

أما برقة فقد وصفها بقوله: " ثم استقبلنا بادية برقة المتنائية الأطراف، المحفوفة الأكناف، والضاحية الأرجاء، البعيدة الأنحاء، القليلة المرعى، المجهولة المسعى... " (العياشي، 2011، 2: 352).

يؤكد العياشي – هنا – على الشخصية البدوية المستقلة التي كانت حاضرة عند أهل برقة، الذين عرفوا بحبهم للرعي، وعيشهم ضمن مظلة القبيلة، مع وجود تجمعات سكانية في كل من بنغازي ودرنة اللتين كانتا تمثلان حاضرتي برقة، وكانتا مركزين مهمّين للنشاط البحري في حوض البحر المتوسط ضد قرصنة السفن الأوربية وغاراتها.

.....

رحلة ابن طوير الجنة:

رحالة موريتاني، قام برحلته إلى ليبيا أواخر شهر جمادى الآخرة عام 1247 هـ – 1831م بعد عودته من أداء فريضة الحج صحبة الركب المصري.

عندما وصل هذا الرحالة إلى مدينة درنة وبرقة ذكر في رحلته أن أهل هاتين المدينتين التمسوا منه تأليف كتاب في الرد على فرقة كانت موجودة عندهم، وصفهم بأنهم من المعتزلة، يفعلون كثيرًا من أنواع البدع، منها (الشطح والرقص والصياح والتواجد ولطم الخدود وهز الرؤوس بالعنق في حالة الذكر كما يزعمون)، فقام بتأليف كتاب أسماه (فيض المنان في الرد على مبتدعة هذا الزمان) (ابن طوير الجنة، 2013، 190).

من خلال ما ذكرنا يتبين لنا أن طلب أهل درنة من هذا الرحالة تأليف هذا الكتاب دليلٌ مهم على ثقافة السكان المحليين، وتمتعهم بشخصية علمية فقية، وعندهم إدراك ووعي ديني بأن ما تفعله تلك الفرقة –لعلهم صوفيون– من أمور ابتدعوها تشتمل على الصياح والرقص وليِّ الرقاب، ليست من الدين في شيء، وإنما أمور مخترعة مبتدعة.

وذكر ابن طوير الجنة في تقييداته أن سلطان طرابلس يوسف باشا القرمانلي تلقاهم بالفرح والسرور والتبجيل والإكرام بما لا يعلمه إلا الله تعالى، فقال: "فصار أهل دولته كلهم يخدومونا أحرارًا أو عبيدًا في حسن المعاملة" (ابن طوير الجنة، 2013، 183).

وأضاف في رحلته أن أهل طرابلس وعلماءها وأيمة مساجدها أخبروه عن مدينة وادان (مسقط رأس ابن طوير)، وأنهم لا يزالون يسمعون منذ القدم مقولة مشهورة وهي (العلم واداني والتمر فزاني والعبد سوداني) (ابن طوير الجنة، 2013، 192).

ثم أضاف عن طرابلس وعلمائها " رأينا في طرابلس أيضًا علماء أجلاء ورجالاً مِلاحًا وأهل صلاح... ومن جملة هؤلاء الموصوفين بهذه الصفات الجميلة والخصال الجليلة قاضي محروسة طرابلس، فنعم الرجل ونعم العالم الأديب القاضي العادل ذو المودة الصافية " (ابن طوير الجنة، 2013، 192)، وقال عن أهلها أنهم كانوا "مكرمون منعمون مبجلون مجلون" (ابن طوير الجنة، 2013، 193).

.....

وقال عن كرم أهل درنة وبنغازي وطرابلس وجودهم "وأما ما فعل معنا أهل... درنة وأهل بنغازي وأهل طرابلس من أنواع الإكرام وأنواع الإنعام فلا تحصيه الدفاتر، وتقصر عن عده الأقلام والمحابر" (ابن طوير الجنة، 2013، 180).

الرحالة أبو العباس أحمد بن ناصر الدرعي (ت 1129 هـ):

زار هذا الرحالة ليبيا سنة 1709 – 1710 بالتقويم الميلادي، وسجّل تقييداته حول تلك الشخصية الفاضلة التي يتمتع بها أهلها، من حسن معاملتهم للضيف، ونبل أخلاقهم، واعتزازهم بعاداتهم وتقاليدهم في ذلك، فقال " والحاصل مدح البلد وأهلها وحسن أخلاقهم وجودهم سارت به الركبان، وعلم علمائها ملأ الخافقين، وفضلهم من شمس الضحى أظهر وأوضح " (الدرعي، 2011، 78).

وقد أثبت لبعض الشعراء أبياتا في وصف طرابلس قائلا:

طرابلس الغـــــرّا ترى من عودة إليك وهل يدنو الذي كان قــد ذهبْ

سقى الجانب الشرقي منك سحابة ولا زال فيها من رياض الصبا مهبْ

بلاد لـــــها بالخلد شــبه آيـــة ومنها نبات الزعفران كـــــذا العنبْ

إلى أن قال:

وكيف بدار قـــد حوت كل رفعة يقوم لها في العلم باع وفي الأدبْ

فيالك مـــــــن ربع إذا ما ذكرته أهيم كــما الثكالى أو شارب الجببْ

(الدرعي، 2011، 328)

كما دوّن أبياتا من الشعر في مدح طرابلس للشاعر أحمد بن عبد الدائم الأنصار الطرابلسي، وهو من رجال القرن الثاني الهجري، يقول:

طرابلس لا تقبل الـــــذم إنها لـها حسنات جاوزت سيئاتــها

بها فضلاء ما الفضيل يفوقهم فـوارس أنجاد وهم من حماتها

ISSN : 2523 – 1871(online)

.....

قد اختارها الزروق دارا وموطنا كـذا ابن سعيد مقتد بهداتـــها

تواترت الأقطاب تترا بأرضـــها وكـــم سيد رام المقام بذاتـــها

بها علماء عاملون بعلمـــــهم خمول عن الإظهار في خلواتها

(الدرعي، 2011، 332)

نستشف من خلال هذه التقييدات أن اللغة في القصيدة كما في الأجناس الأدبية الأخرى لها دورٌ رئيسٌ في تشكيل هوية النص عندما تستند على محمولات معرفية وآنية ضمن سياق ثقافي، وتشتمل على معان تتجاوز المستوى الدلالي الأول الذي تنطوي عليه المفردات.

والذي يبدو أن المشهد الشعري الليبي ما زال ينطوي على توكيد الهوية الليبية عبر التعالق مع الأمكنة والتراث والأساطير وكتابات الرحالة، الأمر الذي يمزج بين اللغة والهوية مزجا يشكل قصيدة ذات عصب وملامح ونكهة عربية، قد لا تجد مثلها في أي شعر مكتوب بلغة أخرى.

ولعل السبب في ذلك يعود لأهمية الشعر بالنسبة للحراك التاريخي الاجتماعي الليبي، وموقع الشعر بالنســـبة لهذا الحراك، فالقصـــيدة الليبية قد حملت في طياتها ومعناها الكثير من تاريخ البلاد وأفكار أهلها وثقافتهم.

الخلاصة:

من خلال هذه الدراسة المتواضعة يتبين لنا أن البحث في أمر الهوية الثقافية والأدبية لمجتمعنا، ورسم معالمها، وتحديد اتجاهاتها، واستكشاف كنهها –لهو بداية طريق الوعي والإدراك، ومحاولة الاستكشاف واستجلاء الأعراض، ومن ثم رسم الطريق الصحيح للمحافظة عليها في عالم تعصف به رياح العولمة؛ لطمس ثقافات أمم لها حضارات ضاربة بجذورها في أعماق التاريخ.

وقد أسهم الرحالة – من مختلف الأقطار– الذين مروا ببلادنا قي ترسيم هويتنا الثقافية والأدبية، وحازوا هدفين مهمين، هما: الأول أداء فريضة الحج، والثاني التعارف والتواصل مع علماء البلدان التي زاروها عن طريق اللقاء والتواصل والمناظرة والسؤال، فكان من أهم فوائد الرحلات – المستخلصة مما عرض الباحثان – أنها:

.....

1. أسهمت في تبادل الأفكار والثقافات بين الشعب الليبي والشعوب الأخرى.
2. ساعدت على نشر العلم من خلال حضور الرحالة مجالس العلماء– ومنهم علماؤنا – واستعارة كتبهم ونسخها، ونشرها.
3. رصدت الجوانب الثقافية واللغوية والعلمية والاجتماعية في المجتمع الليبي، وكانت بمثابة المرآة التي عكست شخصية الليبي من خلال لباسه، وتقاليده، وعلمه.
4. ساعدت على تثقف القارئ الليبي، وأثْرت فكره ومعلوماته عن بلده ومجتمعه، من خلال تصويرها لهويته، وملامح حضارة بلده في عصر محدد، وليستفيد من تلك الرحلات في مناحي حياته الأدبية والعلمية والتعليمية.

وأخيرا، إن للوعي بالهوية الثقافية والالتزام بها آثارًا عظيمة، تنعكس على الفرد والمجتمع والوطن بشكل عام، تتمثل في نهضةِ العلم والمعرفة، وقوةِ الاقتصاد، واستثمارِ العقول المبدعة، وتطويرٍ دائم وبنّاء للوطن، ولحوقٍ بركب الحضارة، وهيبةٍ للوطن والمواطن، إذا اعتز الكل بهويته الثقافية، فأحسن فهمها، وأجاد لغة التعبير عنها.

ثبت المصادر والمراجع والدوريات:

1. القرآن الكريم.

أولا: المصادر:

2. التجاني، عبد الله بن محمد (1981م). رحلة التجاني. تحقيق: حسن حسني عبد الوهاب. ليبيا، تونس: الدار العربية للكتاب.
3. الجرجاني، الشريف علي بن محمد 816هـ (1998م). التعريفات. بيروت: دار عالم الكتب.
4. ابن جني، أبو الفتح عثمان 392هـ (1956م). الخصائص. تحقيق: محمد علي النجار. دار الكتب المصرية.
5. الحلبي، علي باي العباسي (دومينغو باديا ليبليك) (د. ت). رحلات عبر المغرب. ترجمة: مزوار الإدريسي. طنجة، المغرب: منشورات ليطوغراف.

.....

6. ابن خلدون، عبد الرحمن عبد الرحمـــن بن محمد 808هـ (2004م). مقدمة ابن خلـــــدون. تحقيق: عبد الواحد وافي. نهضة مصر للطباعة والنشر.
7. الدرعي، أبو العباس أحمد بن ناصر 1129هـ (2011م). الرحلة الناصرية. حققها وقدم لها: عبد الحفيظ ملوكي. أبو ظبي : دار السويدي.
8. ابن طوير الجنة (2013م). رحلة المنى والمنة. تحقيق: حماه الله ولد السالم. بيروت: دار الكتب العلمية.
9. العبدري، أبـو عبد الله محمد بن محمد (1968م). الرحلة المغربية. حققه وقدم له وعلق عليه: محمد الفاسي. نشر جامعة محمد الخامس. سلسلة الرحلات رقم 4. الرباط.
10. العياشي، عبد الله بن محمد 1090هـ (2011م). ماء الموائد. تحقيق: أحمد فريد المزيدي. ط1. لبنان: دار الكتب العلمية.

ثانيا: المراجع:

11. إبراهيم، عبد الله (2018م). الدور التاريخي لتعزيز الهوية والوحدة الوطنية:1911– 1969 م، ص: 90 من كتاب: الهوية الليبية: الأبعاد والمقومات – مقاربات متعددة التخصصات. مجموعة أبحاث. مركز دراسات القانون والمجتمع بجامعة بنغازي ومؤسسة فان فولينهوفين للقانون والحكومة والمجتمع – جامعة ليدن.
12. أنيـــس، إبراهيم، (وعبد الحليم منتصر، وعطية الصوالحي، ومحمد خلف الله أحمد) (2004م). المعجم الوسيط. ط4. مجمع اللغة العربية. مكتبة الشروق الدولية.
13. التليسي، خليفة (1974م). حكاية مدينة طرابلس لدى الرحالة العرب والأجانب. الدار العربية للكتاب.
14. التليسي، خليفة محمد(1993م). قاموس إيطالي عربي. ليبيا: دار الريان.
15. الشيباني، عمر محمد التومي (2001م). تاريخ الثقافة والتعليم في ليبيا. طرابلس: جامعة الفاتح.
16. أبو صوة، محمود أحمد (2012م). جدلية المجال والهوية: مدخل لتاريخ ليبيا العام. طرابلس: دار الرواد.
17. طعيمة، رشدي أحمد (1998م). الثقافة العربية الإسلامية بين التأليف والتدريس. دار الفكر العربي.
18. الفقي، إسماعيل(1999م). إدراك طلاب الجامعة لمفهوم العولمة وعلاقته بالهوية والانتماء "دراسة أمبريقية ". القاهرة: الجمعية المصرية للمناهج وطرق التدريس.

.....

19. القوزي، عوض بن حمد(1422هـ). تبسيط استخدام اللغة العربيّة. ط1. الشارقة: جمعيّة حماية اللغة العربيّة.

20. مجموعة من الباحثين (2000م). المنجد في اللغة والإعلام. بيروت: دار المشرق.

21. هارلمبس وهولبورن (2010م). سوسيولوجيا الثقافة والهوية. . ترجمة: حاتم حميد محسن. سوريا: دار كيوان للطباعة والنشر.

22. الودغيري، عبد العلي (2000م). اللغة والدين والهوية. الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة.

ثالثا: الدوريات:

23. إسماعيل، سعيد (1997م). التربية الإسلامية وتحديات القرن الحادي والعشرين. مجلة المسلم المعاصر. العدد: 85. السنة: 21. ربيع ثان – جمادى الأولى – جمادى الآخرة 1418هـ / أغسطس – سبتمبر – أكتوبر.

24. ابن جماعة، محمد (2009م). التعددية الثقافية ومفهوم الهوية المتعددة الأبعاد. محمد بن جماعة. بحث مقدم للمؤتمر الوطني الأول للأمن الفكري تحت شعار (المفاهيم والتحديات) بجامعة الملك سعود.

25. المحروقي، حمدي حسن عبدالحميد (2004م). دور التربية في مواجهة تداعيات العولمة على الهوية الثقافية. مجلة دراسات في التعليم الجامعي. العدد: 7. القاهرة: مركز تطوير التعليم الجامعي. جامعة عين شمس. أكتوبر.

26. السيد، محمود (2010م). اللغة والهوية. مجلة مجمع اللغة العربية. دمشق. المجلد: 85. الجزء: 3.